د . فؤاد زكريا

قيم النهضة الفكرية عند طه حسين

كان عصر النهضة الاوروبية يحمل سمات محلية تنتمي الى صميم الثقافة الغربية ولا تفهم الا في اطارها الخاص . ولكنه كان يحمل أيضا كثيرا من السمات العالمية التي يمكن ان نجد لها نظيرا في أية ثقافة اخرى ، وينطوي على قيم يمكن ان يتكرر ظهورها في أي مجتمع يمر بظروف مماثلة لتلك التي مرت بها المجتمعات الاوروبية .والطابع المميز لهذه القيم هو انها قيم انتقالية ، من عصر محافظ متخلف يسوده الجمود والسكون ، الى عصر متطور متقدم تشيع فيه الحركة والتجديد . ولا جدال في اننا لو شئنا ان نحدد نوع الطابع المحافظ الذي جعل أوروبا تتسم في العصور الوسطى بالجمود ، ونوع الطابع التقدمي الذي جعلها تتسم في عصر النهضة ومطلع العصر الحديث بالتجديد والتقدم ، لكان لزاما علينا ان نشير الى الخصائص التي تميز الاقطاع الاوروبي في العصر الوسيط والعوامل التي أدت الى ظهور النظام البورجوازي التجاري في أوائل العصر الحديث . غير ان في استطاعتنا ان نسقط هذه الخصائص النوعية من حسابنا ،ونحتفظ بالطابع العام الذي يميز تلك المرحلة الانتقالية ، وعندئذ يصبح هذا الطابع نمطا عاما يمكن ان ينطبق على مجتمعات كثيرة ، ويفيد من المفيد الى أقصى حد أن نطبق هذا النمط على مجتمعنا في مرحلة انتقاله الحاسمة ، التي بدأت منذ القرن التاسع عشر ، وما زالت – في عدد غير قليل من البلاد العربية – مستمرة حتى اليوم .

والحق ان صراع القيم الذي ساد عصر النهضة الاوروبية ، كان يلح على ذهني بلا انقطاع كلما استرجعت صورة طه حسين . فالسمة التي تلخص دور طه حسين في الفكر العربي عامة ، والمصري خاصة ، خلال نصف القرن الذي كانت فيه شخصيته مهيمنة على حياتنا الادبية والفكرية ، هي – في رأيي – انه واحد من ممالقة عصر من عصور النهضة ، وفي حياته وصراعاته ومعاركه تتمثل جميع الخصائص التي تميز عصور الانتقال الفكري الحاسم ، ومن هذا المنظور يمكننا ان نفهم طه حسين على افضل وجه ، وأن نحدد موقعه من عصره ومن عصرنا الحاضر ، ونستخلص ما سيظل طه حسين يمثله من قيم باقية.

ولعل أبرز ما تتصف به عصور النهضة هو ان القديم فيها لا يكون قد اختفى في الوقت الذي يكون الجديد فيه قد بدأ يتولد . بل ان عصور النهضة الحقيقية هي تلك التي تكون فيها سطوة القديم على أشدها ، لا لشيء الا لان بذور الجديد قد بدأت تظهر . ففي عصر النهضة الاوروبية بلغت شراسة السلطات الرجعية الكنسية أوجها ، لان الجو العقلي العام بدأ يكشف عن مظاهر تدعو في نظرها الى القلق ، وتثير فيها احساسا غير مريح بأن استقرار سلطتها واستتباب نفوذها لم يعد أمرا مضمونا . ومن هنا كانت صرامة محاكم التفتيش في ذلك العصر أشد مما كانت عليه في العصور الوسطى ، حيث لم تكن ثمة مخاوف ولا أخطار . وفي مقابل ذلك فان الفكر الجديد يبدو – أن يعيش في عصر النهضة هذا نفسه – فكرا ضعيفا هشا ، لا تمثله الا أقلية ضئيلة الشان ، تحاول ببطولة أن تقف في وجه سلطات مستنبة عاتية . ومع ذلك فان التاريخ سرعان ما يقف في صف هذه الاقلية الضعيفة ، وسرعان ما يكتسح معاقل السلطة المتخلفة ، فيرسخ بذلك ما في النهضة من قيم تقدمية ، وتذوي القيم المتخلفة حتى تختفي الى غير رجعة .

ولست أود أن أقول ان طه حسين كان أول من نادى بقيم فكرية باعثة للنهضة في مصر ، اذ ان جهود الرواد الاوائل ، من رفاعة الطهطاوي الى جمال الدين الافغاني الى الشيخ محمد عبده ، كانت قد مهدت الطريق ، في صمت وسكون حينا ، ووسط ضجة عالية حينا آخر ، لظهور أساليب جديدة في التفكير تصدم الاذهان المتمسكة بالقديم ، وتحيي الامل في بعث جديد . ولكن الذي أود أن أقوله هو ان طه حسين كان ، في شخصه وفي فكره ، يمثل تجسيدا حيا لقيم النهضة الفكرية على نحو لم يستطع أي من هؤلاء السابقين عليه أن يحققه . كما انه هو الذي استطاع ان ينقل هذا الصراع ، من المستوى الضيق الذي كان عليه من قبل ، الى مستوى أوسع وأرحب بكثير ، ويجعله جزءا من التكوين الفكري لعصر كامل . فبفضل طه حسين أصبح الصراع الذي هو ألزم لوازم عهود النهضة الفكرية ، حقيقة أساسية من حقائق العصر ، وموضوعا من أكثر موضوعاته تداولا ، بعد ان كان هذا الصراع محصورا في أوساط محدودة دون ان تعرف الجماهير العريضة عنه شيئا ، ودون ان تشارك فيه بالقبول او الرفض .

والحق ان تكوين طه حسين ، اجتماعيا وفكريا ، كان يؤهله لكي يقوم بهذا الدور خير قيام . ففي عصره كان هناك مفكرون آخرون دعوا بدورهم الى قيم مجددة ، وكرسوا جهودهم في ميدان الفكر لكي يخلصوا مجتمعهم من حالة التخلف العقلي ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يمارسوا تاثيرا مماثلا لذلك الذي مارسه طه حسين ، اذ كان هؤلاء (مثل احمد لطفي السيد) من المثقفين الذين ارتبطوا منذ عهد مبكر من حياتهم ببيئة متطلعة الى القيم الجديدة . اما طه حسين فكانت

جذوره تنتمي الى نفس البيئة التي تعشش بين اركانها القيم المتخلفة، وكان كل شيء في نشأته يوحي بأنه لن يكون سوى صوت آخر من بين ملايين الاصوات التي تسبح بحمد هذه القيم ليل نهار . وكان هذا هو موضع الطرافة في شخصيته ، وهو الذي أتاح لدوره الثقافي أن يكون اكثر فعالية . فما الذي كان يتوقع من ريفي ضرير ينتمي الى أسرة متوسطة أو أقل من المتوسطة ، ويتلقى تعليما دينيا في معاهد يقف على رأسها الازهر ـ ما الذي كان يتوقع من شخص كهذا سوى ان يكون فقيها او مقرئا او معلما في قرية ، على أحسن الفروض ؟ ومع ذلك ، فان حدوث كل هذا القدر من التحول في عقل شخص نشأ هذه النشأة وتكوّن هذا التكوين هو الذي يمكن ان يأتي بنتائج خطيرة حقا . فهو ليس غريبا عن القيم المحافظة ، بل انه ينتمي الى صميم البيئة التي أفرزتها وما زالت تفرزها الى اليوم ، ومع ذلك فهو متمرد عليها ، وتمرده ليس خارجيا وانما هو داخلي ، وهو ليس عزوفا واحتقارا وانما هو تحول باطن في رأس شخص كان كل شيء في حياته يدعوه الى ان يكون محافظا كبيئته . ولذلك فان ثورة شخص كهذا على التقاليد البالية تكون اكثر فعالية الى أبعد حد من ثورة ذلك الذي يترفع عن هذه التقاليد لانه ينظر اليها من أعلى ، ومن بعيد .

كان هناك شيء يرمز الى العصر بأكمله في ذلك الجهد المزدوج الذي كان طه حسين يقوم به ، حين كان يستمع الى دروس الشيخ المرصفي في الازهر صباحا والى دروس المستشرق فلينو في الجامعة المصرية القديمة مساء ، ولا بد ان هذين المصدرين من مصادر التعليم كانا يتصارعان في داخله مثلما كانت تتصارع ثقافتان كاملتان داخل مجتمعه الشرقي كله . وكان هناك شيء رمزي في حصول طه حسين ، عام ١٩١٤ ، على أول دكتوراه من الجامعة المصرية في موضوع متعلق بشعر أبي العلاء ، اذ كانت القيم الاكاديمية الجديدة قد بدأت تبزغ عنده ـ وفي مجتمعه بأسره ـ من تربة التراث القديم . وكان هناك شيء رمزي في زواج الازهري ذي العمامة من فرنسية مثقفة ، وفي نظرته اليها ، حتى اللحظة الاخيرة ، على انها مصدر النور في حياته . كانت شخصيته ، ووقائع حياته ، تجسيدا لقيم الالتقاء بين ثقافتين ، والانتقال بين عهدين .

في قيم عصر النهضة اذن ، بالمعنى الذي حددناه لهذا اللفظ ، نستطيع أن نجد مفتاح شخصية طه حسين ، والمدخل الى معرفة موقعه التاريخي في ثقافة المجتمع الذي ينتمي اليه . وما علينا ، لكي ندعم هذا الرأي ، الا ان نحلل القيم التي دافع عنها طه حسين ، واحدة تلو الاخرى ، وسنجدها جميعا قيما مميزة لعصور النهضة الفكرية ، والتحول الثقافي في أي مجتمع .

واذا كنت خلال هذا التحليل سأقرب بين طه حسين وبين ديكارت، كما فعل الكثيرون ، فلن يكون ذلك لان كلا منهما كان عقلانيا ، أو كان من أصحاب مذهب الشك ، بل لان ديكارت كان بدوره تجسيدا لقيم النهضة الفكرية الاوروبية . صحيح انه ، في نظر الكثيرين ، يتجاوز عصر النهضة بالمعنى الفني الدقيق ويقف بكلتا قدميه على أرض العصر الحديث ، غير ان الصراع المميز لعصر النهضة بين القيم الجديدة والقيم القديمة كان حقيقة أساسية في تفكيره ، بل ان من الشراح ـ مثل غيلسون ـ من عدّه آخر الوسيطيين ، مثلما ان منهم من رآه اول المحدثين . ومن هذه الزاوية وحدها أعدّ المقارنة بين طه حسين وديكارت شيئا مجديا .

ان القيمة الاولى في عصر النهضة ـ أيا كان هذا العصر ـ هي الصراع مع الماضي . ذلك لان الماضي ، كما قلنا من قبل ، يظل في عصر النهضة قوة حية يعمل لها المفكر الف حساب . ولا بد ان يتذكر المرء سخط ديكارت على التعليم السائد في عصره ، حين يعود بذاكرته الى تمرد طه حسين على العلم الذي تلقاه منذ صباه حتى شبابه المبكر . فقد تلقى طه حسين هذا العلم من أفضل منابعه ـ وهل هناك ما هو أفضل من الازهر منبعا لهذا العلم ؟ ـ ومع ذلك أحسّ بعدم الرضا عن أسلوب التعليم وعن مضمونه ، وكان في ثورته على التعليم شبيها كل الشبه بديكارت ، الذي تلقى علوم العصور الوسطى على يد أفضل معلميها ، وسرعان ما تمرد على أسلوب التلقين المباشر والحفظ الحرفي لآراء الغير ، وعلى التعاليم المشوهة التي لا يقوم عليها دليل ، والتي يطلب الى الدارس ان يؤمن بها دون مناقشة .

ولقد كانت نتيجة هذا التمرد ، عند طه حسين ، هي وقوفه موقف التحدي من أساليب التفكير الخرافي كما كانت شائعة في قريته ، وكان في هذا التحدي المبكر ما يشهد بأن ذلك التنوير الذي انتهى اليه لم يكن حصيلة اقامته في فرنسا واطلاعه على الثقافة الغربية ، بل ان هذا التنوير كان حادثا لا محالة ، وكل ما أدى اليه اتصاله الوثيق بثقافة الغرب انما كان صقل اتجاهات كانت بذورها قد ظهرت لديه منذ صباه ، بفضل قدرته العقلية الخاصة ، لا نتيجة لاية مؤثرات خارجية . فحين دخل طه حسين في معارك مع فقهاء الريف حول كرامات الاولياء ، وحين اشتدت حدة الخصومة حتى اشتهر بين اهل القرية بالمروق ، وحين تمرد على شيوخ الازهر وضاق ذرعا بتعاليمهم الفجة وبالطرق البالية التي يتبعونها في تلقين هذه التعاليم ـ حين فعل هذا كله لم يكن قد خطا خطوة واحدة خارج أرض بلاده ، وخارج ثقافته المحلية ، ومن ثم فان اتصاله بالثقافة الغربية كان في واقع الامر نتيجة لاستنارته ، لا سببا لها .

والحق ان كلا من طه حسين وديكارت كان يحارب جهالة العصور الوسطى ممثلة في المتزمتين من رجال الدين وفقهاء العصر . وهذا الاتجاه بعينه هو الذي بدأت به الحياة العقلية أو الروحية لدى اي قطب من أقطاب النهضة الفكرية ، في أي مجتمع . وكان تهكم طه حسين من فقهاء الازهر هو الرمز الحي للنزوع الضروري الى هدم القديم في مجتمع يبحث لنفسه عن مكان في عالم عصري . صحيح ان هدم القديم لا يصبح غاية في ذاته ، عندما تستنبت القيم الجديدة ويكتب لها النصر ، بل تصبح النظرة السائدة الى القديم اكثر تسامحا ، وأميل الى وضعه في اطاره التاريخي وادراك مزاياه الايجابية بالنسبة الى عصره . ولكن في عصور الانتقال والصراع لا يكون هناك مفر من مهاجمة القديم بقسوة ، مثلما فعل ديكارت وبيكن مع أرسطو ومع أساليب التفكير المدرسية . ومثل هذا الهدف كان قطعا في ذهن طه حسين حين خاض معاركه الشهيرة ضد سلطة القيم الفكرية التقليدية .

ولقد لخص طه حسين موقفه تلخيصا صريحا ، مباشرا ، حين قال في مستهل كتاب « الشعر الجاهلي » ـ ذلك الكتاب الذي أثار أكبر قدر من الضجة تعرض له طوال حياته ـ « أريد ان اصطنع هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الاشياء في أول هذا العصر الحديث ، والناس جميعا يعلمون ان القاعدة الاساسية لهذا المنهج هي ان يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وان يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما » . ولم تكن اشارة طه حسين الى تلك « القاعدة الاساسية » من قواعد المنهج الديكارتي مصادفة على الاطلاق ، اذ ان هذه « القاعدة الاساسية » هي التي جلبت لديكارت مشكلات لا حصر لها مع رجال اللاهوت في عصره . فقد أحسوا بأن الدعوة الى « ان يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل » قد لا تنسحب على الفلسفة وحدها ، وقد تمتد الى أمور تمس صميم العقيدة الدينية ، وشعروا بأن « خلو الذهن خلوا تاما » مما كان يقال من قبل قد يعني مراجعة أمور كثيرة لم يكونوا يريدون لها ان تراجع ، ومن هنا دب القلق الى نفوسهم واخذوا يثيرون العواصف في وجه ديكارت . واغلب الظن ان العواصف التي أثارها كتاب طه حسين الذي استهل بمثل هذا التقديم

كانت ، في حقيقتها ، ترجع الى شعور مماثل بالقلق لدى من ينصبون انفسهم حراسا على التراث وحماة له ، ازاء تلك الدعوة الجريئة الى مراجعة « كل شيء » ، والبدء فيه من جديد وكأنه لا ماضي له ولا تاريخ .

وربما بدا لنا ، ونحن في معرض الحديث عن موقف التحرر من الماضي ، الذي اتخذه كل من طه حسين وديكارت ، ان الثاني كان على حق في دعوته الى البدء من جديد ، وكأن الذهن خال خلوا تاما من أي شيء قيل في أي موضوع يبحثه ، على حين ان الاول لا يستطيع ، وهو في القرن العشرين ، أن يردد دعوة كهذه . ففي عصر ديكارت ، حين كان التراث الفكري هزيلا بحق ، كان من واجب المفكر ان يدعو الى تطهير الذهن من كل ما قاله الاقدمون ، اما في القرن العشرين ، بعد أن أحرزت المعرفة كل هذا التقدم ، فكيف يدعو مفكر الى مثل هذه البداية الجديدة ، ويتنكر لتراث المعرفة المتراكم عبر قرون العصر الحديث ؟ على ان واقع الامر هو ان طه حسين لم يكن يعيش في القرن العشرين الا بحساب الارقام فحسب ، وكان يعلم حق العلم ان البيئة التي يعيش فيها ما زالت ، في معظم مظاهر حياتها ، تعيش في صميم العصور الوسطى ، ومن هنا فانه لما كان قد عاش نفس المشكلات التي عاشها ديكارت ، فلم يكن من المستغرب ان يكون رد الفعل الذي تعرض له ، والاخطار التي واجهها ، مشابهة لما تعرض له ديكارت وواجهه .

والوجه الآخر للاتجاه الى التحرر من الماضي ، هو نزع هالة القداسة عن التراث الفكري والادبي . وتلك قيمة من أرفع القيم الفكرية التي كرس طه حسين حياته للدفاع عنها . فهو يقول في نفس المقدمة التي اقتسمنا منها منذ قليل « يجب حين نستقبل البحث على الادب العربي وتاريخه ان ننسى عواطفنا القومية وكل مشخصاتها ، وان ننسى عواطفنا الدينية وكل ما يتصل بها ، وان ننسى ما يضاد هذه العواطف القومية والدينية ، ولا نذعن لشيء الا مناهج البحث العلمي الصحيح » . هذا الدفاع المجيد عن المنهجية العلمية والعقلانية ينصب هنا على ميدان كانت آفته ، ولا تزال ، هي تلك الهالة من التقديس التي تجعل معظم الدراسات المتعلقة بتراثنا التاريخي أو الفكري أو السياسي او الديني بعيدة كل البعد عن روح العلم الصحيح . فقد أدرك طه حسين خطورة الخلط بين البحث العلمي والتقديس ، ونبه الى ان من يكتبون في الموضوعات المتعلقة بالتراث يهدفون الى التبرير اكثر مما يهدفون الى الكشف عن الحقائق ، وانهم يبدأون أبحاثهم وقد ارتسمت في أذهانهم نتائجها مقدما : فلا بد ان تؤدي هذه الابحاث الى حفظ المقدسات ، ولا بد أن تبرر كل الوقائع « الرسمية » التي يعترف بها التراث ، ولا بد أن تتجاهل كل ما من شأنه جعل هذا التراث « انسانيا » معرضا – ككل شيء انساني – للخطأ والزلل . بل اننا لا نقتصر على ان نطبق هذه « الضوابط » على أنفسنا ، وانما نطالب الآخرين بها ، ونهاجم بعض المستشرقين مهاجمة قاسية لا لانهم ذوو أهداف سياسية خفية ، أو لانهم يفتقرون الى الموضوعية أو الروح العلمية ، بل لانهم يعرضون تراثنا على انه تراث انساني عادي ، ولان مشاعرنا الدينية الخاصة لا تعمر قلوبهم ! كل هذه معان لا بد ان طه حسين قد تنبه اليها حين دعا الى نسيان العواطف القومية والدينية عند دراسة الادب ، ولا بد انه كان يؤمن بضرورة تطبيقها في ميادين اخرى كثيرة اوسع من ميدان الادب ، بدليل انه يدعو الى دراسة التاريخ الاسلامي بمنهج اجتماعي ، ويقدم في هذا الصدد محاولات لها قيمتها العلمية الكبيرة ، كما يدعو الى دراسة الحركات والثورات التي يعدها المؤرخون الرسميون « منحرفة » ، كثورة الزنج وغيرها من حركات الخوارج ، والى التماس مصادر وأصول لفكرة العدالة الاجتماعية في أمثال هذه الحركات الاسلامية الاصيلة ، بدلا من التماسها في تاريخ الغرب وحده (انظر في كتاب « ألوان » مقال : « ثورتان ») .

والوجه الآخر لهذا المنهج الفكري المتحرر هو العقلانية ، التي دافع طه حسين عنها دفاعا صريحا في كثير من كتبه ، وان كان دفاعه الاهم – في رأيي – هو ذلك الدفاع غير المباشر ، الذي يتمثل في نوع النماذج التي اختارها موضوعا لدراسته . فاهتمامه بأبي العلاء ، وابن خلدون ، والخوارج ، وديكارت ، يدل على التزام اصيل بعقلانية التفكير . ولولا انه كان نصيرا متحمسا للعقل لاختار من التراث ما يرضي النزوع اللاعقلي للانسان ، لا سيما وان النزعات اللاعقلية هي « ممثلة الاغلبية » في هذا التراث .

وكما ان دعوة ديكارت الى مراجعة كل المعارف الموروثة واحضارها أمام « محكمة العقل » قد جرت عليه من العواقب ما جعله يتخذ من الحذر شعارا له ، ويقول كلمته المشهورة : « انني أسير خلف قناع Larvatos prodeo » ، فكذلك حاول طه حسين ، بعد أن تعرض لهجوم غاشم جاهل ، ان يلتزم الحذر في بعض كتاباته الجريئة ، وعلى رأسها « المعذبون في الارض » ، ولكن قناع الحذر لم يحل دون مواصلة الهجوم عليه ، لا سيما بعد أن أضاف هذا الكتاب بعدا اجتماعيا الى البعد الفكري التحرري لثورته على القديم .

ولعل القيمة الكبرى التي تكمن من وراء هذا كله ، وتقدم الاساس الذي ترتكز عليه كل القيم السابقة ، هي ما يمكن ان نسميه بالنزعة الانسانية في فكر طه حسين . هذه النزعة تعد واحدة من القيم الاصيلة لعصور النهضة ، وهي التي كانت تحفز أقطاب هذه العصور الى مهاجمة التعصب وضيق الافق والدفاع عن التحرر والعقلانية . ذلك لان العقل بطبيعته عالمي النزعة ، امامه يتساوى الناس جميعا ، وما داموا يحتكمون اليه فلن يتحزبوا أو يتفرقوا شيعا ، بل ستظل اختلافاتهم تدور في اطار من الفهم والاحترام المتبادل .

ولقد كان عصر النهضة الاوروبية عصر « نزعة انسانية » بالمعنى الصحيح . وحين أقول ذلك لا أعني حركة « الدراسات الانسانية » « Humanism » التي كانت في حقيقتها حركة ادبية تهدف الى نشر النصوص القديمة بصورة علمية محققة ، بل أقصد ذلك النزوع العالمي الذي كان يسيطر على عقل أقطاب ذلك العصر ووجدانهم. فهؤلاء رجال تجاوز تفكيرهم نطاق المجتمعات التي كانوا يعيشون فيها ، والبلاد التي كانوا ينتمون اليها ، وأصبحت أحلامهم وأمانيهم تتعلق « بالبشرية » جمعاء . وكانت مصادر الثقافة التي ينهلون منها متنوعة أشد التنوع . ولعل مما له أبلغ الدلالة في هذا الصدد ان الثقافة العربية كانت من اهم هذه المصادر ، وان هؤلاء الرجال لم يكونوا يخجلون من الاعتراف بأهمية هذا المصدر ، واننا نحن أنفسنا ننظر الى تأثر المعرفة في عصر النهضة بالثقافة العربية وبالعلم العربي على انه من مظاهر اتساع أفق هؤلاء الناس ، ولا نعيب عليهم انهم استمدوا معارفهم من « ثقافة مستوردة » كما نقول الآن عن أولئك الذين يؤمنون بوجود ثقافة عالمية ويدعون العرب المعاصرين الى استيعابها بعمق . فحين كانت العربية جزءا أساسيا من « الثقافة العالمية » كانت هذه الاخيرة خيرا وبركة ، وكان اقتباس الآخرين لها أمرا يستحق الثناء ، أما حين أفلت زمام « الثقافة العالمية » من أيدينا ، فقد أصبحت شرا كلها ، وأصبح ينظر اليها كما لو كانت وباء ينبغي الفرار منه .

ولقد بلغ من تحمس طه حسين للثقافة الانسانية العالمية ، انه دعا الى التفتح للثقافات جميعا ، حتى أبعدها عنا جذورا . فقد كان ، على سبيل المثال ، من أكبر أنصار الادب اليوناني القديم ، ودافع دفاعا مجيدا عن تدريس الآداب واللغات الكلاسيكية في الجامعات المصرية ، وبذل جهدا ضخما من أجل نشر المعرفة بهذه الآداب بين القراء العرب ، مع علمه بأن تلك الآداب ، اذا كانت جزءا من تراث المثقف الغربي ، فهي بعيدة عن المثقف العربي بعدا مزدوجا : لانها قديمة زمنيا ، ومختلفة حضاريا . ومع ذلك كان طه حسين يشعر

بان كل كسب مستمد من الثقافات العالمية يمكن ان يعود علينا بنفع جزيل لو عرفنا كيف نهضمه ونستوعبه ، ولم يكن يؤمن بان للحواجز القومية أهمية أساسية اذا كان الامر متعلقا بتراث انساني رفيع .

ففي ضوء هذه النزعة العالمية يتبدى طه حسين مفكرا انسانيا استوعب تراثه القومي وأنتج فيه العديد من الروائع ، واتسع افقه للتراث العالمي فنقله الى بني قومه ودافع عنه بنفس الحماسة التي كان يدافع بها عن ثقافة أجداده . وبرغم ان هذا المفكر الانساني كان ازهريا سابقا فقد اتهمه خصومه بالارتماء في احضان الثقافة الغربية والتنكر لثقافة الاجداد ، مع ان هؤلاء الخصوم لم يقدموا ـ مجتمعين ـ الى ثقافة الاجداد هذه قدرا ضئيلا من الخدمات التي قدمها لها طه حسين . على ان هناك من حاولوا ـ في الطرف المضاد ـ ان يعطوا لكتابات طه حسين مضمونا ايديولوجيا يتمشى مع الاتجاهات الاشتراكية الحديثة ، ووجدوا في بعض كتاباته ، ولا سيما « المعذبون في الارض » ما يوحي بذلك ، ولكن حقيقة الامر ان النزعة الانسانية كانت ، في هذه الحالة بدورها ، هي التي أدت به الى اتخاذ موقف الدفاع عن الطبقات المضطهدة ، ولم يكن للايديولوجية دور في موقفه هذا ، الا اذا كان ذلك دورا غير مباشر الى أبعد حد .

* * *

لقد ظهر طه حسين في وقت كانت فيه بلاده أحوج ما تكون الى هذا اللون من الفكر المتفتح على العالم ، ومن القيم الفكرية المبشرة بالتحول من الجهالة والتخلف الى نور العقل . واليوم بعد أن ودعنا طه حسين ، أصبح من حقنا ان نتساءل : هل نحن ما زلنا في حاجة الى القيم التي نذر طه حسين حياته للدفاع عنها ؟

في اعتقادي ان القدر الاكبر من تلك القيم ما زال في حاجة الى المزيد من الدفاع ، ومن الكفاح . وقد يوحي هذا بان طه حسين لم ينتصر في معركته ضد قوى التخلف ، ولكني افضل ان اعبر عن هذه الحقيقة بالقول ان المعركة التي بداها ، وقطع منها شوطا طويلا ، ما زالت مستمرة .

فما زلنا ، حتى اليوم ، في حاجة الى استيعاب ذلك الدرس البليغ الذي تعلمنا اياه معارك طه حسين الفكرية ، وأعني به وجوب الفصل بين الدين وبين المؤسسات التي تدعي احتكاره ، ووجوب الفصل بين التراث وبين الهيئات التي تتصور نفسها حارسة له ، قيمة عليه . فقد هاجم الازهر بعنف ، ولكنه كان مخلصا للدين مدافعا عن قيمه الرفيعة . وهاجم النظرة الضيقة الافق الى التراث ، وسعى الى فهمه برحابة ذهن بعد نزع غشاوات القداسة المفرطة والتعصب الاعمى ، فاسدى بذلك الى التراث خدمة كبرى برغم اساءته الى سدنته وكهانه .

واذا كانت معارك طه حسين ضد المتعصبين والجهال قد كشفت لنا عن أهمية قيمة التحرر الفكري والتسامح الانساني ، فان معاركه مع انداده من كبار مفكري عصره قد أكسبت العصر الذي عاش فيه قيمة تعلو به حتى على عصرنا الحاضر . ذلك لان عهد المعارك الفكرية بين طه حسين من جانب ، وبين العقاد وهيكل وغيرهما من كبار الكتاب والادباء من جانب آخر ، كانت تمثل مستوى من الصراع الفكري نبحث عنه اليوم في بلادنا فلا نجد له اثرا . كانت المعارك عنيفة ، وكانت المدارس متصارعة ، ومع ذلك كان كل فريق يدعو الآخر الى منازلته ولا يحاول أن يستعدي عليه سلطة أو يثير عليه نقمة او يفوت عليه فرصة التعبير عن نفسه . وكان المفروض ، والمتوقع ، ان تسير حياتنا الفكرية بعد ذلك نحو مزيد من التحرر واتساع الافق ، ولكن الذي حدث هو اننا لا نكاد ندخل اليوم في معركة فكرية حتى يسارع أحد الطرفين الى استدعاء « الشرطة » للاخر . ففي هذه الناحية كان عصر طه حسين يمثل قمة عالية هبطنا منها ، منذ ذلك الحين ، هبوطا حادا .

كذلك كان ايمانه بالعلم وكرامة العلماء في مستوى يصعب ان نجد له فيما بعد نظيرا . ففي عصره كانت وزارات كاملة تهدد بالسقوط نتيجة لازمة يتسبب فيها أستاذ جامعي ، او موقف من مواقف الكرامة يتمسك به عميد احدى الكليات . وكان التعلم في نظره يمثل قيمة مطلقة ، وما على المسؤول عن خزانة الدولة الا ان يدبر له ما يحتاجه من الاموال . هذا ، في تصوره ، هو الشرط الاول لنهوض المجتمع من التخلف ، وهو شرط ينبغي ان نتذكره كثيرا كلما تحدثنا عن رغبتنا في الارتفاع بمجتمعاتنا الى مستوى العصر .

اما القيمة التي سنظل ، على الارجح ، نصارع من أجلها طويلا بعد اختفاء طه حسين من مسرح الحياة ، فهي قيمة التفتح الفكري ، والعقلانية ، والتسامح ازاء كل الثقافات . فمنذ أوائل هذا القرن كان طه حسين يخوض معركة تدور حول السؤال : هل نعترف بالثقافة الغربية او لا نعترف ؟ وهل نجعل العقل مرشدا لنا ، أم نسلم قيادنا للخرافات والغيبيات ؟ وكان المفروض ، بعد ان انقضى من هذا القرن ثلاثة ارباعه ، ان يرتفع مستوى السؤال ، وان تدور المعركة على ارض اوسع افقا ، ولكن المشاهد ان السؤال لا يزال هو السؤال، والمعركة لا تزال تدور على ارض يسكن العقل منها ركنا قصيا، ويمرح الجن والشياطين والمردة والارواح في ساحاتها طولا وعرضا . وما زلنا اذا انجزنا شيئا كبيرا ننسبه الى تدخل الملائكة وبعث الانبياء من قبورهم ، وما زلنا غير واثقين ان كان الانسان هو الذي يفعل ام ان قوى غيبية هي التي تمارس تأثيرها من خلاله . واغلب الظن ان القرن الحادي والعشرين سيحل علينا ونحن لا زلنا نتساءل ان كان ينبغي ان ناخذ من حضارة الغرب أم نكتفي بالتراث ، في الوقت الذي يكون فيه الغرب قد سكن القمر ، وزار المريخ . ولن يكون لنا من هذا التخلف خلاص الا اذا ادركنا ، كما أدرك طه حسين ، ان كل ثقافة كبرى تفدو ملكا للانسانية جمعاء ، وان التفتح العقلي هو سبيلنا الوحيد الى السير في طريق النهضة الفكرية حتى نهايته .

القاهرة

مكتبة النوري

دمشق ـ تجاه البريد العام

وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى دور النشر اللبنانية والعربية في القطر السوري .